تعليق على مقال

أثر المـــرأة

فى حياة الشيخ محمـــد عبده

للأستاذ عثمان أمين

كتب أستاذنا الكبير الشيخ مصطفى عبد الرازق بك فى مجلة « الشباب »[1] مقالا عنوانه « أثر المرأة فى حياة الشيخ محمد عبده » . ونحن مع إعجابنا بما حوى هذا المقال من طرافة ودقة بحث ، مما شأن أستاذنا فيما يسطر قلمه البارع ، نرجو أن يسمح لنا فى التعليق عليه ببعض ملاحظات

ذكر أستاذنا كيف كان قصر الأميرة نازلى فاضل[2] مجتمعاً للعظماء وقادة الرأى فى مصر فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وأشار كذلك إشارات لطيفة إلى ما اتصفت به الأميرة من صفات شخصية عالية جعلتها تميز قيم الرجال وتخص الشيخ محمد عبده بمكانة تجمع بين الحب والاجلال

ونحن من جانبنا نوافق أستاذنا مصطفى بك فيما ذهب إليه من أمر تلك المودة الصادقة التى قامت بين الشيخ محمد عبده وبين الأميرة نازلى والتى كان لها ـ من غير شك ـ أثر عميق فى حياة الشيخ و فى نفسه الكبيرة الحساسة .

ولقد وقع لنا ـ أثناء بحثنا عن آثار الأستاذ الامام ـ خطاب يشهد بوجود تلك الصداقة التى ذهب اليها حضرة صاحب المقال ؛ والخطاب بالفرنسية كتبته الأميرة بخطها إلى الشيخ محمد عبده تدعوه فيه إلى القدوم لرؤيتها . وهذا نصه :

Samedi

Cher Ami

Je vous prie de venir me voir ce soir après 7 h.

Je regrette d'avoir manqué votre visite hier.

Votre amie sincére.

Nazli

وإليك ترجمة الخطاب[3] :

السبت

صديقى العزيز :

أرجوك أن تحضر لرؤيتى هذا المساء بعد الساعة السابعة

أنا آسفة إذ فاتتنى رؤيتك أمس

صديقتك المخلصة :

نازلى

فأمر الصداقة إذن حق . واختلاف الشيخ محمد عبده إلى قصر الأميرة أمر مقرر . ولعلنا الآن لا نبالغ اذا قلنا إن عناية الشيخ محمد عبده باتقان اللغة الفرنسية ربما كان نفحة من نفحات الأميرة التى كانت تتكلم بالفرنسية كأحدى بنات « النسين » ذوات الثقافة العالية والأدب الرفيع . ونظرة إلى مجموعة الكتب الفرنسية التى وجدت بمكتبة الأستاذ الامام ، والتى تعالج منها شؤون الأدب الفرنسى بنوع خاص ، تؤيد ما ذهبنا اليه من أثر الأميرة فى ميول الاستاذ الامام واطلاعاته .

* * *

أراد أستاذنا الفاضل مصطفى بك أن يبين أثر الأميرة فى حياة الشيخ محمد عبده من ناحية أخرى ، فذكر فى آخر مقاله أن الشيخ كان يجهر أول أمره بعداوته لانجلترا ويكتب فى ذلك فصولا ضافية ، ثم قال : « أما بعد اتصاله بالأميرة نازلى التى كان هواها مع انجلترا ، وكانت صديقة للورد كرومر ، فقد تلاشت عداوة انجلترا من صدر استاذنا (محمد عبده) وأصبح يجهر فى كتاباته ودروسه أن بريطانيا العظمى أحسن الدول استعماراً » .

فهل يسمح لنا فضيلة الأستاذ أن نبدى فى هذه النقطة رأياً آخر ؟

اذا كان الامام محمد عبده ، أول أمره ، قد حمل على الانجليز حملات شديدة ، فقد كان ذلك فى جريدة « العروة الوثقى » أيام اتصاله بأستاذه السيد جمال الدين الأفغانى . فكان يكتب وهو فى باريس ، مدفوعا بحماسة الشباب ، ومرارة المنفى بعيداً عن وطنه ، ومتأثراً بآراء استاذه الأفغانى ، وقد كانت على ما يعلم الجميع — ترمى الى الثورة سواء بتأليف الجمعيات السرية ، أو الاذاعة بالقلم واللسان . أو استعمال العنف والقتل ، وبالجملة القيام فى وجه الظالمين المستبدين سواء أكانوا شرقيين أم غربيين[1] .

---

(١) العدد الأول الصادر بتاريخ ١٧ فبراير سنة ١٩٢٦

(٢) ابنة الامير مصطفى فاضل صاحب الخطاب المشهور المرفوع إلى السلطان عبد العزيز سنة ١٨٦٦ والذى ترجمه فتحى باشا زغلول بعنوان : « من أمير إلى سلطان »

(٣) الخطاب مجهل بالسواد كتبت الأميرة على غلافه بالعربية : « عز تلو شيخ محمد عبده حضرتلرى » ولم ترسله إلى الامام عن طريق البريد ، بل حمله إليه رسول من

(١) انظر : Blunt, (Secret History, P. 489

وكان محمد عبده ، أول الأمر يعتنق أكثر آراء استاذه الأفغانى ، لكنه بعد عودته من باريس وحبوط الدعوة وانفصاله عن استاذه ، عدل آراءه الأولى ، ومال إلى الأخذ بالاعتدال والتدريج متوخياً الاصلاح : لامن طريق السياسة والثورة ، بل من طريق التعليم والتربية الاجتماعية والدينية ، وكان الأستاذ المصلح يتحدث عن هذا فيقول :

« علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين . وأن نحمل الحكومة على العدل بما نستطيع ، وأن نبدأ بترغيبها فى استشارة الأهالى فى بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ، ويكون ذلك كله تمهيداً لما يراد من تقييد الحكومة . وليس من اللائق أن نفاجىء البلاد بأمر قبل أن تستعد له فيكون من قبيل تسليم المال للناشىء قبل بلوغ سن الرشد : يفسد المال ويفضى إلى التهلكة » (١) .

أما عن الاصلاح الدينى فهو يقول فى رده على هانوتو : «إن الغرض الذى يرمى إليه جميعهم (أعنى المصلحين من المسلمين) إنما هو تصحيح الاعتقاد وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ فى فهم نصوص الدين ، حتى إذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب ، وتهذبت الأخلاق بالملكات السليمة . ولم يخطر ببال أحد ممن يدعو إلى الرجعة إلى الدين سواء فى مصر أو غيرها ، أن يثير فتنة على الأوربيين أو غيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين . » (٢) فلما أراد محمد عبده تطبيق وجوه الاصلاح على الأزهر بادخال العلوم الحديثة فى برامجه ـ وكانت أولى محاولاته الاصلاحية فى عهد الخديو توفيق ـ قام فى وجهه شيوخ جامدون على ما ألفوا من تقليد ، ولم يفطنوا إلى مدى إصلاحه ، وبعد ذلك نظر الشيخ عبده إلى السلطات العليا يلتمس عندها التأييد ، فوجد من الخديو عباس الثانى مناوأة له ومناصرة لخصومه ، ولقى الامام فى ذلك من الأذى كثيراً . ولسنا اليوم بحاجة إلى بيان ما كان فى خصومة الخديو للأستاذ الامام من شدة ، فذلك أمر مشهور . وحسبنا أن نشير إلى تلك الوثيقة التاريخية الخطيرة التى نشرها أخيراً احمد شفيق باشا (١) والتى أرسلها الخديو إلى شفيق باشا ـ وكان إذ ذاك رئيساً للديوان العالى ـ يؤنبه فيها على السير فى جنازة الشيخ محمد عبده إزاء الدسائس المتوالية والحملات المنكرة التى كانت توجه من كل صوب إلى رجل الاصلاح ، لم يكن للأستاذ الامام بد أن يدير وجهه إلى السلطات الانجليزية (٢) فعرف « لورد كرومر » وأقنعه بوجهته فى الاصلاح ، ووجد محمد عبده المفتى من العون عند كرومر ما أخطأه عند عباس الثانى وعند شيوخ الأزهر . ومن اطلع على التقارير السنوية التى كان يقدمها لورد كرومر إلى حكومته وجد فيها ذكرا طيباً للشيخ محمد عبده وتقديراً لأعماله . وعميد الانجليز فى مصر يذكر لنا نفسه أن مناصرته محمدا عبده لم تكن بالأمر اليسير نظرا لما كان يلقاه الامام المصلح من خصومة المحافظين له وكراهة الخديو إياه ، بل لولا كرومر مابقى محمد عبده فى منصب الافتاء طويلا (٣)

* * *

نرى مما تقدم أن الشيخ عبده لم يصادق الانجليز عفوا ولا إرضاء لهواه ، بل ألجأته إليه الظروف : كان يريد الاصلاح حقا ، ولم يكن بمقدوره أن يمضى فى إصلاحه وأهل الجمود والتقليد يقيمون فى وجهه العراقيل ، ويحيكون من حوله ضروب الدسائس ، فكان طبيعيا إذن أن يلتمس موافقة الانجليز . وكان لهم حينذاك النفوذ الفعلى فى البلاد

على أن رضاه عن سياسة بريطانيا فى مصر لم يكن ينسيه واجبه كوطنى ، بل كأول من حاول بث الفكرة الوطنية فى نفوس المصريين ، ولم تكن تفوته فرصة دون أن يطالب فيها بقيام دستور للحكم العادل فى البلاد ، ووضع حد للتدخل الذى كان

(١) انظر : السيد رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ٢١٧

(٢) راجع : السيد رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام جـ ٢ ص ٤٠٩ ومابعدها

(١) انظر : احمد شفيق باشا : مذكراتي فى نصف قرن . الجزء الثاني . سنة ١٩٣٦ ص ٧١ إلى ٧٤

(٢) يعلم الناس ان المحافظين الجامدين قد بلغ من شدة معارضتهم للاصلاح الديني ان ألفوا حزبا (على رأسه الشيخ محمد الرفاعى والشيخ المنصورى) لمناوأة الشيخ محمد عبده . وحدث فى ذلك الحين أن صدرت من الاستاذ الامام فتوى تجيز للمسلم طعام اهل الكتاب والتزيى بزى الفرنجيين إذا اقتضته ظروف الحياة ان يعيش بين الاوربيين . ولما كادت تذاع هذه الفتوى حتى قام لها حزب المعارضين ونادى بالويل والثبور ، واخذ يشيع فى الناس ان مفتى الاسلام إنما يعمل على التأليف بين المسلمين والمسيحيين . وانشأ الحزب جريدة يومية للطعن على فتوى الامام ، وقيل فى ذلك الحين ان مدير تلك الجريدة كان يؤيدا من الجهات الرسمية مقربا من الخديو . . . إلى آخر ما هنالك حتى شاع انهم ارادوا عزل المفتى لولا ان تدخل « كرومر » آخر الامر وصرح « ان المفتى هو المفتى وانه سيظل مفتيا » . وقد سجلت جريدة « المقطم » هذه الاشاعات فى ذلك الحين

(٣) انظر : Cromer,(Modern Egypt),vol .II. P. 180.